18- محمد سعد

427-ريح السموم

كانوا يسمونها ريح السموم، تأتي من الشرق عبر تخوم الصحراء قاسية حارقة، تهلك الحرث والنسل. إن حلت بين ظهرانيهم، عوت كألف ذئب، تصول وتجول بين الأكواخ الهشة، تطل بعيونها النهمة من أصغر الشقوق على الصبية الوجلين، لتضاعف من فرق الأمهات حسب اعتقادهن، كل ذلك اللهيب البغيض في عز الشتاء هو تنهد ابن مرّة (الشيطان) غيرة من بني البشر، وبراءة الطفولة هي أشد ما يشتهيه.

لأنها تذكره بطهارة زمن سحيق انزلقت من يده غصبًا كحبات الرمل، كلما أحكم قبضته عليها، كلما زاد انفلاتها إصرارًا.

آخر مرة هبت عليهم على حين غرة، اقتلعت التربة والجذور الفتية، عرت الأرض فغدت جلمودًا صلدًا عاقرًا، وعرت معها شيئًا آخر، بصمة عميقة كالحة كالختم الناري، تتخللها آثار أكسدة الحديد الحمراء كالدم المتحجر، كانت مخالبها متجهة نحو القرية!

¤¤¤

428-صورة تذكارية

اعتدلوا بتأنق في جلستهم عارضين أنفسهم على المصور في أبهى وضعية مع ابنهم المتوفى منذ أيام، إكرامًا لذكراه. توسطهم ومحياه يرسم لامبالاة الموتى.

ضوء وامض، ثم انفضوا لشئونهم الدنيوية بعد وضع جثمان الفقيد في عهدة التراب.

مر أسبوع حين طرق المصور منزل الأب وقد مزقت وجهه الحيرة:

-سيدي اعتذر.. بعد تحميض الصورة.. لم.. لم..

-أفصح.. ما المشكلة؟

-انظر بنفسك سيدي، عشرون سنة من احتراف التصوير ولم أرَ شيئًا مثل هذا!

بفضول أمسك الأب المستطيل الورقي، فغرق فيه بشرود. وسط الصورة يظهر الميت لوحده بوضوح مبتسًما مع نظرة تتفجر بالحياة، وكأنه معلَّق في الهواء مسندًا من جانبيه على دعامة أو شخص خفي..

ثم.. لا شيء آخر!

¤¤¤

429-الانعكاس

-خدمة الطوارئ.. ما مشكلتك؟

-أرجوكم أرسلوا دورية للشرطة.. رأيت شخصًا مقنَّعًا بالشارع ينظر إليّ بشكل مرعب عبر زجاج نافذتي بالدور الأرضي.. العنوان هو..

كان صوتها تتخلله رعشة الخوف..

-اهدئي سيدتي.. وشغلي جهاز الإنذار بمنزلك.. سيصل عناصر الأمن خلال عشر دقائق.. الزمي مكانًا آمنًا حتى يطرقوا بابك.

أغلقت جميع المنافذ، وتضاءلت بإحدى الزوايا تراقب الزقاق، نسيمٌ باردٌ قرصَ خديها، تضاعف حجم حدقتيها لما سمعت جهاز الإنذار، وباب المدخل الرئيسي مفتوح. هرولت لتقفله مجددًا وهي تلتفت يمنة ويسرة. خيال حالك ارتسم ببؤبؤيها يبتعد خارجًا بهدوء رهيب. عرق بارد تفجر من جذور شعر ناصيتها متخذًا سبيلًا متعرِّجا ليتدفق خلف أذنيها وجانبي عنقها.

الغريب الذي رأت لم يكن بالخارج، كان معها بالبهو، خلفها تمامًا، خدع بصرها لما رأت انعكاسه على الزجاج. من شدة الذهول لم

تلقِ بالًا للطرق الشديد على الباب وصوت اللاسلكي الذي كان ينبح بصوت متحشرج!

¤¤¤

430-حتى آخر رمق

يقال إن الرأس عندما تفصل عن الجسد يبقى الدماغ واعيًا لبضع ثوانٍ، يفتح خلالها عينيه على رعب ما بين العالمين. كان الأمر مختلفًا معها!

بعد قطع رأسها رأيت شفتيها تتمتمان، تبين لي بعد فوات الأوان أنها استغلت تلك اللحظة الرهيبة لإلقاء لعنتها عليّ.

كيف فعلت وحبالها الصوتية حزت؟

¤¤¤

431- بيرومانيا

أُلقي عليه القبض وأدين بتهمة إضرام النار العمد، المفضي إلى الموت مع تعييب أشياء مخصصة للمنفعة العامة. تهم ثقيلة، لم ينف ضلوعه في الأحداث الدرامية التي تصدرت اهتمام وسائل الإعلام. وحده يعلم أن ذلك كان بشكل غير مباشر، إن النار أو شيئًا يسكنها ناصَبه العداء، ضغينة قديمة تعود لأيام خدمته في دائرة الإطفاء، نار بذاكرة ملتهبة، تلاحقه أينما حل وارتحل، تفتح باب جهنم على محيطه. يدرك أنه داخل السجن وقع في الفخ، لا مهرب.

لا ذنب له فيما سيحصل لباقي فئران المصيدة وسط الجحيم المستعر!

¤¤¤

432-تنويم

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

صوت فرقعة خفيف ثم.. لاشيء.

في فضاء معتم طفوت فوق جسدي، ثم تركز نظري على بؤبؤ عيني الزجاجي، لمحت فيه طفل السابعة الذي كنت، بمنزل والدي، بغرفة الحمَّام أحمل فرشاة أسنان أمام المرآة.

بزاويتها اليسرى بقعة ضبابية كأن أحدًا ألصق بها أنفاسه، توسطتها كلمة مقلوبة تهجيتها بصعوبة : ب ر ه أ..

صرخت صرخة مدوية. سمعت المعالج من بعد سنوات ضوئية يصاب بنوبة ذعر..

-أوقف التجربة!

لم أخرج منها كما دخلت..

جزء مني علق بالبؤبؤ!

¤¤¤

433- الألم

صدقوني لم أكن أنوي قتله. الألم الذي كان يحرق ركبتيه مزق قلبي، أفرغنا محتويات الصيدليات دون جدوى، كلما زرنا طبيبًا رمقنًا باستعلاء، وتخلَّص منا بطريقة أو بأخرى. قلت في نفسي: "لا جنة للبؤساء فوق هذه الأرض " ثم فكرت: "يجب أن أفعل شيئًا يخفف عنه" رأيت أن فأس الحطاب التي نحتفظ بها في القبو أنسب آداة لبتر ساقيه، فهما لن تكونا بأي حال من الأحوال أقسى من جذع شجرة! ثبته بقوة وأحكمت وثاقه رغم بعض المقاومة الضعيفة لأنه كان عجوزًا، ثم هويت على ركبتيه بالفأس الواحدة تلو الأخرى. كنت مخطئًا، كان الأمر أصعب بأشواط من قطع شجرة، الأشجار لا تصرخ بتلك الطريقة الرهيبة التي كان يصرخ بها أبي!

¤¤¤

434-بالون

-بالون.. بالون.. بالووون..

تراقصت البالونات الملونة في الهواء مع النسيم القادم من جهة الشاطئ، بينها وبين الحرية يد البائع الخشنة. أعناق الأطفال اشرأبت نحو السماء مراقبة تموجات الألوان جيئة وذهابًا. سيارة البائع متربصة بمدخل الغابة، فاغرة بابها الخلفي المفتوح على الظلمات، في انتظار طريدة جديدة!

¤¤¤

435-الطارق

طق طق طق! طرقات بالباب..

- من الطارق؟.. لا إجابة

نهضت على مضض.. فتحت.. لا أحد..

ريح باردة نتنة صفعتني..

وجدت نفسي أمام باب الجار وبيدي فأس تقطر دمًا!

استيقظت مذعورًا أتصبب عرقًا.. تنهدت.. كابوس مرعب..

طق طق طق!

¤¤¤

436-نداء الحرية

وقف بارنوم يحدق في المرأة ذات اللحية الكثة، إحدى نجوم عروضه الغريبة التي تستهوي وتشد الجمهور في كل مرة، وهي تستعد لملاقاة معجبيها، حاول نفخ صدره بكبرياء وعجرفة لكن بطنه الكبير حال بينه وبين ذلك، كان ذلك محبطًا لكنه اليوم في مزاج جيد فقد عثر منذ أيام على ضالته: مسخ بشري فريد من نوعه، الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان! اليوم سيكون أول عرض رسمي له، منجم ذهب بالفعل !بدقة وصرامة وزع أوامره على مساعديه وتوجه بخطى ثابتة إلى أقصى زوايا المخيم حيث تقبع بضعة أقفاص داخل خيمة قذرة، على بُعد خطوات قليلة من هذه الأخيرة داعب بابتسامة رضا وجه

الحارس العملاق الذي يقف في المدخل وأمره بالتنحي، رفع الستار بيده وجلس القرفصاء أمام صديقه كما يحب أن يدعوه، بعبارات منمقة بلغت درجة الكمال نتيجة تجربة سنوات من العمل الدءوب خاطب المخلوق الخجول ليجري معه اتصالًا ذهنيًّا ويعدّه لحياة النجومية والمجد، لكن المعنى ظل صامتًا، وجه زوجته لا يفارقه، آخر مرة رأى عينيها عندما كانتا تحدقان في السماء بعدما قتلوها واختطفوه، ابتسامة عريضة أضاءت محياه تركت بارنوم مشدوها. هل يستطيع هذا الشيء أن يبتسم؟ ما يجهله الآن هو أن هذا الشيء قرر اللحاق بزوجته، لكنه قبل ذلك ارتأى أن يأخذ معه هذا المخلوق المكتنز الذي يتمتم بعبارات بشعة لم يفهم منها حرفًا!

¤¤¤

437-داخل حجرة قذرة، جثت ساحرة الفودو على ركبتيها تحمل رجل دجاجة، كانت تغمسها في سائل داكن وترش بها صورة ضحيتها التالية.

في نفس الوقت كانت تنفث الكحول من فمها على النار التي كانت تستعر أمامها تزامنا مع كل نفخة.

أخيرًا مسحت شفتيها بمنديل ورقي وحملت شفرة حادة جرحت بها راحة يدها اليسرى فتدفق الدم الدافئ على الصورة.

دم من فئة نادرة، فئة (ب) التي تسيل لعاب الشياطين لقوتها الروحية.

حاولت النهوض لإلقاء لعنة الموتى وهي تتمتم التعاويذ فانقلب الإناء الفخاري المستعر بقطع الفحم، لتشب ألسنة اللهب في فستانها وتشرع في التهام جسدها بنهم، جوعى لرائحة الكحول التي تفوح
منها.

سقطت وهي تتلوى من الألم وتنظر بعجز إلى مطفأة الحريق المعلقة بإحدى الزوايا بعيدًا عن متناولها.

¤¤¤

438- التباس

ضغطت زر المصباح اليدوي، فتم تسليطه بسرعة على شيء يتحرك. رأت أولًا فستانًا أبيض كالذي ترتديه يتوسطه ثقب فظيع يقطر سائلًا أسود لزجًا، رفعت المصباح لترى أن الكل يعتليه وجهها الشاحب!

¤¤¤ .

439-قربان

إن تحققنا من الأمر جيدًا، صديقنا البائس لم يسرق شيئًا ثمينًا بالمعنى المتداول بين عامتنا، حتى إنه لم يسرق! أخذ شيئًا اعتبره حقًّا له، ما دام ذلك الشيء مجرد قطعة حجر ملقاة على الأرض بطريقة جد مملة، لا تعود ملكيتها لأحد، ولم يدع أحد العكس، كما أنها لم تكن شيئًا فريدًا، كانت وسط «أخواتها» تحت رحمة النوائب، لن أسهب أكثر ! بحكم عمله كصانع زجاج تقليدي، من تعرفون التقط حجرًا بركانيًّا! رغبة منه في استعماله بمشغله، كما رأى السكان الأصليين يفعلون، خطؤه الوحيد والقاتل طبعًا هو أنه لم يأخذ «الإذن» من سيدة البراكين ناماكا، كما اعتاد القرويون، الذين كانوا يقدِّمون لها الهدايا والقرابين مقابل الحصول على عطاياها. كانت القاعدة بسيطة: "إن لم تقدِّم قربانًا، تصبح أنت القربان"، وإن كسرت هذه القاعدة تصبح القرية هي البديل! وهكذا دواليك.. كلما كبرت المخالفة اتسعت رقعة الغضب والدمار، لكن يبدو أن الجيران لم يكونوا بمثل غبائه! تم الحد سريعًا من تبعات الضرر، أحكموا وثاقه وأخذوه إلى مشارف الفوهة أعلى الجبل. لم تتأخر ناماكا، فهي سيدة جد عملية: بدأت التهامه من رأسه الأجوف!

¤¤¤

440- جريدة الصباح

لا غرابة في نشر خبر مقتل وزير في الصفحة الأولى بأهمّ يومية بالبلد، إلا في تفصيل صغير، العدد الذي ألصق بيديه أمام وجهه المحطم مع قهوة الصباح في سيناريو مريع مؤرخ قبل سنة!

¤¤¤

441-الحب في جرعات

عدلت ربطة عنقه وعانقته بحرارة لدى الباب، كعادتها كل صباح. خرج للعمل يصفر لحنًا مرحًا وهو يحمل موتًا موقوتًا بين أضلعه، جرعة صغيرة من نكهتها الخاصة احتضنها فنجان قهوته المرة، كالمعتاد ! طيلة العشرين سنة الماضية، لم يتأخر دقيقة واحدة في العودة؛ روتين ينقذ حياته دون أن يدري، في كل مرة يجد في استقباله كوبًا آخر يحمل الترياق! الجهل ببعض الأمور نعمة إلهية! ستأسف كثيرًا إن تعطلت سيارته في الطريق، إن علق في الازدحام، إن قرر -لا سمح الله- المكوث للسهر مع بعض المعارف! بغض النظر عن بعض الأضرار الجانبية، تلك مجازفة مسموح بها، ألا ترون؟

¤¤¤